فكاهات

رواية

ضريح الحبيبين

في الجنوب الشرقي من فرنسا ديرٌ قديم للراهبات يدعى دير أمابرج وهو قائمٌ في وسط بقعةٍ فسيحة من ارضٍ بغير مأهولة تحيط بهِ حديقةٌ غنآء من اجمل ما رتبتهُ يد الانسان واقربهِ مشابهةً للطبيعة وكان هذا الدير مطلاًّ على بحر بيسكي من الجهة الواحدة ومن جهاتهِ الثلاث على صحاري واسعة لا يكاد يُرَى فيها بنآءٌ واحد

واشتهرت راهبات هذا الدير بالفضيلة والتقوى وكان معظمهنَّ من الفتيات الغنيات ومن اشهر الأُسَر الفرنسوية دفعهنَّ الزهد في اباطيل العالم ومجدهِ الفاني الى التنسك والانقطاع للعبادة فاحتشدنَ في تلك البقعة يقطعنَ معظم اوقاتهنَّ في الادعية والصلوات ويصرفنَ ما بقي منها في اعمال البرّ من تجهيز ثيابٍ لاولاد الفقرآء او اعمال يدوية يرسلنها في آخر كل سنةٍ الى باريز حيث تباع باثمانٍ وافية وتنفق قيمها في الصدقة على البائسين او يوفدنَ من قِبَلهنَّ وفوداً تصحب العساكر في مواقع الحروب لمداواة الجرحى والتخفيف من آلامهم

---

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

وفي ذات يوم قُرع باب الدير المذكور فبادرت الراهبات الى غرفة الرئيسة وقد اخذ منهنَّ العجب كل مأخذ لعلمهنَّ انَّ ديرهنَّ لا يزار وليس على سكة عمومية ليأوي اليهِ تائهٌ او متشردٌ فاسرعت الرئيسة الى صليبٍ من العاج فحملتهُ بيدها وسارت وتبعتها الراهبات كجيشٍ من الملائكة حتى بلغت الباب وكان الزائر لا يزال يقرع بالحاح ففتحت الباب الخارجي واذا بشخص ملتفٍّ بردآءٍ اسود قد وثب الى الداخل وتبينت الراهبات ان الزائر قد اتى ماشياً ولا رفيق معهُ فتعجبنَ من امرهِ ثم اغلقنَ الباب وعدنَ بالزائر الى داخل الدير . ولما استوى بالجميع المقام خلع الزائر ردآءهُ الاسود فبرز من تحتهِ غادةٌ بل حوريةٌ من الحور العِين في مقتبل الصبوة بقدٍّ كالبان ووجهٍ كالبدر وقد انسدل على ظهرها شعرها الحالك فبلغ اقدامها وكان يطفح على محياها مآء الجمال ويتدفق من عينيها نورٌ ومن خديها نار بل كان في كل جارحةٍ من حسنها قمر . فدهشت الراهبات لهذا المنظار الغريب وخلنها من ملائكة السمآء قد هبطت اليهنَّ لتشاركهنَّ في عيشتهنَّ الهنيئة . اما الرئيسة فتقدمت الى الفتاة وصافحتها قائلةً اهلاً بكِ ومرحباً ايتها الفتاة ولكن هل لكِ ان تبرّدي غليل شوقنا بان تخبرينا من انتِ وما تقصدين من مجيئكِ في مثل هذا الوقت وانتِ وحيدة في اجتيازك هذه القفار المخيفة لا يحرسكِ حارس ولا يرافقكِ احد . ورأت الفتاة من حديث الرئيسة وهيئتها ما سكّن روعها فتنهدت وقالت

انني يا امّاه قد اختبرت العيشة في انحآء باريز فوجدتها شقآءً وعذاباً مستمرًّا وطالما كنت اتوق الى الابتعاد عنها والانفراد لعبادة العزة الالهية

وقد رأيت من شرور الناس وخبث ضمائرهم وسوء افعالهم ما كان يزيدني نفوراً منهم ورغبةً في الانقطاع عنهم حتى علمت بمقامكنّ فوطّنت النفس على المجيء اليكنّ ومشاطرتكنّ هذه الحياة الطاهرة . اما اجتيازي هذه القفار وحدي فقد كانت ترافقني فيها عينا الله وتحرسني عنايتهُ فلم يصبني ادنى سوء . وقد احضرت معي بعض النقود والحلى المختصة بي وهي ملكي وهآءنذا اقدمها لكِ يا اماه لتضيفيها الى مال الدير وهي وان تكن قليلة فانها جميع ما املك ولا اظنها تقلّ عن فلسَي الارملة فهل لكِ ان تقبليني في عداد بناتكِ وتكوني امًّا لي

وكان في كلام الفتاة سحرٌ وفي نطقها كهربآئيةٌ فجذبت قلوب الراهبات اليها فاحببنها من تلك الدقيقة حبًّا شديداً ولم يكن ميل الرئيسة اليها اقلّ من ميل الراهبات فضمّتها الى صدرها وقالت لا بدّ قبل ان اجيبكِ على سؤالكِ من طرح بعض الاسئلة عليكِ فهل تجيبيني عنها . قالت نعم يا اماه اجيبكِ بقدر ما استطيعهُ . فقالت الرئيسة اخبرينا اولاً ما هو اسمكِ . فقالت اسمي لِندا واما اسم أُسرتي فانها من الأُسر الشريفة في فرنسا غير اني نسيتهُ منذ دخلت باب هذا الدير فهل تختارين لي اسماً جديداً او تكتفين باسم لِندا فاني افضل ان لا اغيرهُ . قالت الرئيسة لا بأس فليكن اسمكِ لِندا ولكن هل كان مجيئكِ الينا برضى والديكِ . قالت لا... وانما اقسم لكِ يا اماه انني لم افعل بمجيئي ما يوبخني عليهِ ضميري ولا ما يغيظ الله مني . قالت وهل حدث من عهدٍ قريب حادثٌ كان سبباً لمجيئكِ الى هنا . قالت لا ولكني من زمنٍ طويل كان في نفسي ان اقضي حياتي

في مثل هذه العيشة وكانت الايام تزيدني رغبةً فيها . قالت وهل انتِ عذرآء . فصبغ الدم وجنتي لِندا وزاد خفقان قلبها وسقطت الدموع الغزيرة من عينيها فانها لم تكن تتوقع مثل هذا السؤال وهي آية العفاف والطهر ثم تمتمت بصوتٍ قد خنقهُ الحيآء فقالت نعم يا اماه

وتأثرت الرئيسة فندمت على سؤالها ثم قالت كفى يا ابنتي فانتِ عندي اعزّ من روحي . ثم التفتت الى احدى الاخوات وقالت خذي هذه الاخت يا مرغريت الى غرفةٍ تليق بها ووفري لها اسباب الراحة فانها ولا بد قد تعبت من طول السفر . فشكرت لندا وخرجت بصحبة مرغريت وكانت مرغريت قد احبت لندا حبًّا يفوق التصور فما صدقت ان وُكِل اليها الاعتنآء بها فاخذتها الى غرفةٍ فسيحة بجانب غرفتها وبعد ان جهزت لها لوازمها قبّلتها وتركتها . ولما استقرّ بلندا المقام نهضت فغيرت ثيابها وغسلت عنها غبار السفر وعوضاً عن ان تستريح جلست على سريرها ثم اخرجت من صدرها صحيفةً وصورة فجعلت تقرأ الصحيفة وتنظر الى الصورة ودموعها تتحدّر على خدّيها تحدُّر الطلّ على الزهر . ثم عادت فاخفت الصحيفة والصورة وغسلت وجهها ورتبت ملابسها وخرجت الى المعبد وكان وقت الصلاة والراهبات يدخلنَ بترتيب فدخلت معهنّ وقدّمت هنالك صلاةً حارّة كان يشهد لها فيها شخوص بصرها الى السمآء وتنهدها من قلبٍ جريح

. . . . . .

وبعد ايام اجتمعت رئيسة الدير باحدى الراهبات وجرى بينهما حديث لندا وذكر محاسن صفاتها فاخذت الراهبة تثني عليها ثنآء طويلاً لما ظهر

منها من الورع والصلاح وما في اخلاقها من اللطف والرقة ثم قالت وهي من اكثرنا مواظبةً على الشغل حتى انها كثيراً ما تشاطرنا اعمالنا فلا تكاد تُرَى جالسةً ولا متفرغة عن عملٍ تتشاغل بهِ وهي مع ذلك كلهِ ساكتة لا تنبس ببنت شفة . فقالت الرئيسة الذي يظهر لي انهُ لا بدّ لها من حديثٍ ولكنها لا تشآء ان تذكر ماضيها ولا اجرأ انا ان اسألها فهل لمحت احداكنّ شيئاً من ذلك . قالت اني لم اسمعها تذكر شيئاً من ماضي حياتها ولا لمحت منها علامةً تدلّ على شيءٍ منهُ وانما اذكر انها يوم قصّت شعرها طلبت ان تبقيهُ في غرفتها ولا يزال عندها

وبقيت لِندا على الحالة التي وصفناها الى نهاية السنة ثم اخذت صحتها تتغير وجسمها يضعف وكانت لا تذكر ذلك ولا تخفف من شغلها اليومي حتى اخذت قوّتها في الانحطاط الى ان اضطرت الى لزوم الفراش وكانت الرئيسة والاخوات يبذلنَ كل ما في وسعهنّ لشفآئها فلم يجدِ ذلك نفعاً بل كانت حالتها تزداد شقآءً من يوم الى آخر وهي لا تزال باسمة الثغر متهللة الوجه يتدفق منهُ نور الجمال . وبقيت لندا ملقاةً في الفراش نحو شهرٍ او اكثر وكانت مرغريت لا تفارق سريرها لا نهاراً ولا ليلاً . وفي ذات يوم اشتدّ مرض لِندا وشعرت بدنوّ اجلها فنادت مرغريت وقالت لها انني اشعر باقترابي الى باب الديار التي لا راحة لي الا فيها . وقد جئتكنّ غريبةً وقضيت بينكنّ كل هذه المدة من دون ان تعرف واحدةٌ منكنّ عني شيئاً ولم يكن من الواجب ان اطلعكنّ على ماضي حياتي غير انني رأيت من حبكِ لي واخلاصكِ في مودتي وتشوّقكِ الى معرفتي ما يدفعني الى ان

ابوح لكِ بسرّي فاسمعي وانسي ما اقول

اني قد ربيت مع اختٍ لي في بيت نعيم وكان والدي من المتقدمين في وظائف الحكومة فكنا في بحبوحة العيش والسعادة ولما توفي والدي ترك لوالدتي اموالاً طائلة وغنىً وافراً فربتنا احسن تربية في اشهر المدارس فلم يكن يعوزنا شيء . وكنت في اوقات فراغي اطالع الروايات والقصص فلم اكن اقرأ او اسمع حديثاً غرامياً الا واراهُ محاطاً بالشدائد والغصص فنفرت من الحبّ وآليت على نفسي ان لا اسمح لقلبي ان يتعلق برجل ووطّنت النفس على ان اقضي حياتي مع والدتي اتمتع بالحياة بدون شريك . ومن مدة سنتين — اجل من سنتين من مثل تاريخ هذا النهار — ذهبت مع والدتي وشقيقتي لزيارة صديقةٍ لنا في قرسايل فصادفنا عندها فتىً يدعى كاميل . ولا حاجة الى الاطالة في وصفهِ ولكني اقول لكِ اني مع كل اصراري على عزمي ونفوري من الميل والهوى لم اتمكن من كبح جماح فؤادي ولم اقوَ على منع قلبي من التطوع لسلطان الهوى فانقدت لداعي الغرام واخذ حبّ كاميل يزداد فيّ يومياً حتى ظهر اخيراً لوالدتي . فلما علمت بهِ ارغت وازبدت واسمعتني ما لم يخطر لي ببال والسبب في ذلك ان كاميل مع كونهِ من اسرةٍ لا تنحطّ عن اسرتنا شرفاً وغنىً فان اسرتهُ كانت من الحزب الملكي فلما قامت ثورة الجمهورية وقتلت الاغنياء وسلبت اموالهم كان والدا كاميل واملاكهُ من جملة الضحايا التي ذهبت في ذلك الحين واصبح كاميل فقيراً مع كونهِ شريفاً . ولذلك كانت والدتي تزجرني عن هواهُ وتقول لن اسمح لكِ ان تقترني بهذا الفقير المُهمل واجتهدتُ ان

اقنعها بان ما لديَّ من المال يكفيني واياهُ وانهُ في مقتبل الشباب وامامهُ ابواب المستقبل وسلَّم النجاح واظهرت لها جميع ما يصوّرهُ لي الحب من الآمال فلم تلن ولم ترحم بل زاد نفورها منهُ ثم مني فكانت تكرهني وتُكرِهني على ان انساهُ او تنبذني . وعرف كاميل ذلك فكان كسوسٍ ينخر فؤادهُ فجعل يدأب في تحصيل مقامٍ رفيع وبسطةٍ من الغنى ولكن وا اسفاه لم يسعدهُ الدهر وكان الحزب الملكي لا يزال مكسور الشوكة فلم يتوفق في متمناهُ . اما انا فكنت اجلس الليالي الطوال اندب بختي والحياة المرَّة التي يقضيها الانسان على وجه الارض . وفي تلك الاثناء تزوجت شقيقتي بشابٍ اختارتهُ لها والدتي وكانت تُظهِر لها المحبة والحنوّ وتظهر لي القسوة والغلظة فكانها كانت تدس السمّ في كأس شبابي . ولما ضاقت بنا الحال عزم كاميل على اختطافي والهرب بي فاتى يوماً الى غرفتي سرًّا واطلعني على مقصدهِ فابيت موافقتهُ خوفاً من العار ولكنني اقتنعت اخيراً وقبل ان نخرج من البيت علمت بهِ والدتي فنادت الخدم واتهمتهُ باللصوصية فسلموهُ الى الشُرَط وقادوهُ الى السجن . وعبثاً كنت احاول ان احرّك شفقة والدتي واطلب لهُ العفو فلا تزداد الا اصراراً حتى كرهت الحياة بين الناس لاني لم ارهم الاّ ذئاباً خاطفة في ثياب الحملان ووحوشاً ضارية في هيئة البشر وصممت على الانقطاع عن العالم وهكذا فعلت وجئت الى هنا . ولم اشأ ان اغير اسمي لان كاميل كان لا يلذهُ الا سماع اسم لندا ولم افارق شعري لانهُ كان يحب النظر اليهِ ولم يكن لديَّ ما يذكرني بهِ سوى هذه الصورة والرسالة وهما كل ما لديَّ منهُ . ولما جئت الدير عزمت

ان انسى كل ماضيَّ وصممت على ذلك غير انني كنت ارى في الايقونة صورتهُ واسمع في جرس الكنيسة صوتهُ واتمثل في منامي شبحهُ ويظهر ان حبهُ قد تملكني ملكاً ليس في سلطتي التخلص منهُ الى ان اشرفت على هذه الحالة وانا شاعرة بدنو اجلي فدونكِ قصتي . ان هذا اليوم تذكار تاريخ معرفتي بكاميل وقد مضى على ذلك سنتان فكفى . . .

وكان الكلام والتهيج قد اثرا في لندا تأثيراً شديداً فالقت رأسها على الوسادة خائرة القوى ولما استراحت قليلاً نهضت ثانيةً وقالت لا لا . اني لا اطيق الحياة ولا اعلم اين هو او ما يقاسيهِ الآن . استحلفكِ بالله ايتها الاخت مرغريت اذا متُّ ان تدفني هذه الصورة وهذه الرسالة معي اما شعرهِ فاني اهبهُ لكِ تذكاراً من المسكينة لندا . ثم اجفلت بغتةً كمن سمع صوتاً يناديهِ وصمتت هنيهةً ثم تبسمت وقالت كاميل كاميل . ان لم يكن اجتماعي بك الا هناك فهآءنذا ايها الحبيب . ثم سقطت على سريرها واسلمت الروح . . . . .

. . . . . .

في صباح اليوم الثاني قامت الراهبات بملابسهنَّ البيضآء وسرنَ بترتيبٍ حاملاتِ الصلبان والمباخر ينشدنَ نشيداً يشقّ تأثيرهُ الصخور وهنَّ بين زفيرٍ وعويل وفي وسطهنَّ ستٌّ منهنَّ قد حملنَ جثة لندا مكللةً بالازهار فحملنها الى وسط الحديقة حيث دفنَّ جثتها واقمنَ لها لحداً من الرياحين والورود وجثونَ حول ضريحها للبكآء والصلاة عن نفسها

. . . . . .

في صباح ذات يومٍ قُرع باب الدير ففُتح واذا بالداخل فتىً في عنفوان الشباب مليح الهيئة بهيّ الطلعة غير انهُ اصفر الوجه مكسور الطرف حزين النفس منقبض الصدر ولما قابل الرئيسة استأذنها اولاً ثم سألها هل قدمت الى ديرها فتـاةٌ تدعى لندا . فلم يلفظ هذا الاسم حتى تساقطت دموع الرئيسة تساقط المطر واحتبس لسانها عن الـكلام فاقتربت الاخت مرغريت الى الغريب وقالت لهُ هل انت كاميل . فقـال نعم انا هو وهل لندا هنا .. استحلفكَ بالله وبطهارة ساكنات هذا الدير ان تسعي لي في مقابلتها لحظةً واحدة . فوضعت الاخت يدها على فمها مشيرةً اليهِ بالسكوت ثم امرتهُ ان يتبعها فتبعها صامتاً وهو كمن في حلم فذهبت الى غرفتها واخذت منها ضفيرة الشعر فدفعتها الى كاميل ثم سارت بهِ الى الحديقة حتى بلغت الضريح فاشارت اليهِ بمنتهى الحزن وقالت هي هنا منذ اول امس ثم سقطت على ركبتيها واستخرطت في البكآء . اما كاميل فوقف هنيهةً وهو لا يدري اين هو ثم جعل يبدي اشاراتٍ كمن فقد عقلهُ واخيراً عاد الى هداهُ فاعول وبكى بكآءً شديداً ثم سقط على الضريح يقبل تربهُ ويمطرهُ من دموعهِ ولم يزل كذلك حتى فاضت روحهُ فوق قبر حبيبته.

ولما اطلعت الرئيسة على جميع ما جرى سمحت — وهي المرّة الاولى والوحيدة — ان يخالَف قانون الدير وتُضَمّ جثة كاميل الى بقايا لندا فدفنوهُ بجانبها وكانت رئيسة دير أملَبرج وراهباتهُ يأتينَ كل يومٍ بعد الصلاة الى الضريح فيجددنَ ازهارهُ ويبكينَ الحبيبين ويصلينَ عن نفسيهما